

خُطْبَةُ السَيِّدَةِ زَيْنَبِ بِنْتِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي الْكُوفَةِ
(دراسة صوتية)

أ.م.د. فالح حسن الأسدي

م.م. حيدر عبد الرسول عوض

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

كلية الآداب/ جامعة بابل

Sayeda Zeinab bint Imam Ali (peace be upon them) in Kufa (Audio study)

Ass. Lec. Hayder Abdul Rasool Awad

College of Arts\ University of Babylon

hayderawadh@yahoo.com

Dr. Faleh Hassan ALAsadi

dr.falih1970@yahoo.com

College of Education for Human Sciences\ University of Babylon

Abstract:

Search for the relationship of the meaning of the characteristics of the voices in terms of the meaning of the word lexicon and question in the search for this speech in Imam Hussein bin Abi Talib Kufa and approached them, and gathered around them crying and mourning for them, then turned to them Ms. Zainab peace be upon him, and used to people to shut up and stopped breathing and breath The bell rang, And we will examine in this research the significance of the voices and their impact in directing the meaning contained in the words of the sermon, such as ignorance, whispers, intensity, languor, dish and openness, and arrogance and obsequiousness, and whistling and perversion and repetition and deviation and richness, Because of these characteristics of the semantic effect evident in the meanings that were mentioned in the words of the sermon, came the qualities of the sounds according to meanings desired.

Keywords: vocal connotation, speech, whisper, intensity, looseness, arrogance, arrogance.

المخلص

يكشف البحث عن علاقة دلالة صفات الأصوات بدلالة معنى الكلمة المعجمي وسياقها الخارجي واختصنا البحث الصوتي هذا في خطبة جلييلة للسيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام في الكوفة، بعد استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وصحبه عليهم السلام، سيقت بنات الرسالة سبايا، واتجهت قافلتهن إلى الكوفة فلما اقترب منها، اجتمع أهلها حولهم يبكون وينوحون لأجلهم، حينئذٍ التفتت إليهم السيدة زينب عليه السلام، وقد أومأت إليهم أن اسكتوا فسكتوا وارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس، فانقضت خاطبة مُنكَلَةً بهم على تخاذلهم وعدم نصرتهن للإمام الحسين عليه السلام، واشترك بعضهم في قتله، وسندرس في هذا البحث دلالة صفات الأصوات وأثرها في توجيه المعنى الوارد في ألفاظ الخطبة، كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق والانفتاح، والاستعلاء والاستفال، والصفير والتفشي والتكرار والانحراف والغنة، لما لهذه الصفات من الأثر الدلالي الواضح في المعاني التي وردت في ألفاظ الخطبة، فجاءت صفات الأصوات بحسب ما تشهيه المعاني.

الكلمات المفتاحية: الدلالة الصوتية، الجهر، الهمس، الشدة، الرخاوة، الاستعلاء، الاستفال.

المقدمة

اللهم لك الحمدُ على ما جرى به قضاؤك في أوليائك، الذين استخلصتهم لنفسك ودينك، والصلاة والسلام على محمد وآله خير

خلقك، لا سيما بقية الله في أرضك، وبعد:

فشرّف كلّ عمل من مادته، وهذا البحث هو تحليل صوتي لخطبة سيّدة النساء بعد أمّها الزهراء عليهما السلام في الكوفة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، فهي من قوم قال سيّدهم: ((وإِنَّا لَأَمْرَأُ الْكَلَامِ وَفِينَا تَنْشَبْتُ عُرُوقَهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّأَتْ عُصُونُهُ))^(١)، من أهل بيت قد زقوا العلم زقاً، وشهد بحقها إمام زمانها زين العابدين عليه السلام بأنّها: ((عالمة غير معلّمة، فهمة غير مفهّمة))^(٢)، ومن هنا فقد جاءت خطبتها في غاية البراعة والفصاحة، مملوءة بالصور البلاغية، قد سادها الحزن، وغلب على أسلوبها الاستفهام الإنكاري، الذي يبيّن شناعة فعل من قتل الإمام الحسين عليه السلام وسبى أهل بيته.

وقد حللناها تحليلاً صوتياً، وبيننا دور الصوت في تأدية المعنى المراد، فالصوت أساس اللغة، وعليه تبنى أجزاءها الأخرى صرفاً ونحواً ودلالة، ويلحظ القارئ الكريم أننا ارتكزنا في تحليل الخطبة على نصّها الكامل، بوصفها نصاً كاملاً بناء على ما أقرّه المشتغلون بعلم دلالة النصّ، فلم نجزئ النص ولم ندرسه باتجاهات مختلفة؛ لأنّ ذلك يبعد التحليل عن أجواء النصّ، فسباق النص يتطلب متابعة الخطبة بكلماتها مرتبة وإلا ضاع المرجو من هدف تحليلها، أما ما يخصّ المصادر والمراجع فهي متعددة ومتنوعة تشهد لها هوامش البحث، والحمد لله ربّ العالمين.

توطئة

الدلالة الصوتية بين الإثبات والإنكار

أثبت بعض الباحثين الدلالة الصوتية للأصوات العربية وأنكرها كثير منهم، ومن أسباب ذلك نظرهم لعلاقة الدال بالمدلول (اللفظ بالمعنى) بين الاعتيادية والقصديّة، ولسنا بصدد مناقشة الرأيين وإثبات صحة أحدهما، فقد ناقشناها سابقاً^(٣) فلا حاجة للإعادة هنا. فمتكلم العربية يدرك ((أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتنونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره))^(٤).

وفي التراث العربي إشارات طيبة إلى الدلالة الصوتية، ويعد ابن جني الرائد في ذلك، إذ عقد بابين في كتابه لإثباتها هما: (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)^(٥)، و(امساس الألفاظ أشباه المعاني)^(٦).

ومن إشارات الدقيقة تفرقة بين: ((خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها...فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث))^(٧).

ومن ذلك تفرقة بين: ((الوسيلة والوصيلة، والصاد - كما ترى - أقوى صوتاً من السين لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة. وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة...فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف))^(٨).

ومنهم أيضاً: السيوطي (ت: ٩١١هـ) بقوله: ((فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها وكيف فآوتت العرب في هذه الألفاظ المُقْتَرَنَة المتقاربة في المعاني فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لِمَا هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لِمَا هو أقوى عملاً وأعظم جساً))^(٩).

(١) نهج البلاغة: ٣٥٤.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ٣١/٢.

(٣) ينظر: التفكير اللساني عند الإمام علي عليه السلام: ٣٤-٥٢.

(٤) الخصائص لابن جني: ١٥٩/٢.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٧/٢-١٥٤.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٤/٢-١٧٠.

(٧) المصدر نفسه: ١٥٩/٢.

(٨) الخصائص: ١٦٢/٢.

(٩) المزهري في علوم اللغة: ٤٤/١.

ومن المحدثين أحمد بن فارس الشدياق (ت: ١٨٨٧م) الذي ألف كتاباً مستقلاً في ذلك وسمه بـ(منتهى العجب في خصائص لغة العرب)، إلا أنه فقد، ومنه إشارات في بعض كتبه^(١)، والدكتور صبحي الصالح (ت: ١٤٠٧هـ)^(٢)، والشيخ عبد الله العلايلي جعل لكل حرف معنى يدل عليه ذاتا^(٣)، وعباس محمود العقاد^(٤)، والأمير أمين آل ناصر الدين^(٥)، والأرسوزي^(٦)، ومحمد المبارك^(٧)، ومحمود محمد شاكر^(٨)، وحسن عباس الذي ربط بين الأصوات والحواس^(٩) وغيرهم.

وما ذكر أنفا عين الفكرة التي انطلق منها البحث بإثبات تلك المناسبة، من أن صفات الأصوات لها أثر في معنى الكلمة، وقد طبقتها على نص جليل، نُطق في عصر الاحتجاج، لامرأة نشأت في بيت نزل فيه القرآن الكريم، بيت علم الناس الفصاحة والبلاغة. وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نطبق نظرية الدلالة الصوتية على عدد كبير منها، فهي باب يجب أن يفتح لمتابعة البحث والاستقصاء للوصول إلى نتائج عظيمة وعميقة في كلمات العربية، وما جاء به الباحثون شواهد على ذلك^(١٠)، لكنها لا تصلح للتطبيق على كل ألفاظ اللغة^(١١)، ليس لقصورها، بل لبعد العهد الذي يؤدي إلى تلوث النقاء اللغوي كلما ابتعدنا عن الأصل، وبالتالي يصعب إدراك هذه المناسبة.

نص الخطبة

روى الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) ((عن حذيم بن شريك الأسدي، قال: لما أتى علي بن الحسين زين العابدين بالنسوة من كربلاء، وكان مريضاً، وإذا نساء أهل الكوفة ينتدين مشققات الجيوب، والرجال معهن يبكون.

فقال زين العابدين عليه السلام - بصوت ضئيل وقد نهكته العلة -: إن هؤلاء يبكون علينا فمن قتلنا غيرهم، فأومت زينب بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام إلى الناس بالسكوت.

قال حذيم الأسدي: لم أر والله خفرة قط أنطق منها، كأنها تتطرق وتفرغ على لسان علي عليه السلام، وقد أشارت إلى الناس بأن انصتوا فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس، ثم قالت - بعد حمد الله تعالى والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله -:

أما بعد: يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل! ألا فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الزفرة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، هل فيكم إلا الصلف والعجب، والشنف والكذب، وملق الإماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو كفضة على ملحودة، ألا ببس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبيكون أخي؟! أجل والله، فابكوا، فإنكم أحرى بالبكاء فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فقد أبليتكم بعارها، ومنيتم بشنارها، ولن ترحضوا أبداً، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حريكم، ومعاذ حزبيكم، ومقر سلمكم، وآسي كلمكم ومفزع نازلنكم، والمرجع إليه عند مقاتلتكم ومدرة حججكم ومنار محجتكم، ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم، وساء ما تزررون ليوم بعثكم، فتعسا تعسا! ونكسا نكسا! لقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، أتدرون ويلكم أي كبد لمحمد صلى الله عليه وآله فرثتم؟! وأي عهد نكتنم؟! وأي كريمة له أبرزتم؟! وأي حرمة له هتكنتم؟! وأي دم له سفكنتم؟! لقد جنتم شيئاً إذا تكاد السماوات يتفطرن منه وتتشق الأرض وتخر الجبال هذا! لقد جنتم بها شوهاء صلعاء، عنقاء، سوداء، فقماء، خرقاء كطلاع الأرض، أو ملاء السماء.

(١) ينظر: مقدمة كتابه: الساق على الساق فيما هو الفاريق: VI-I.

(٢) ينظر: دراسات في فقه اللغة: ١٤١-١٤٧.

(٣) ينظر: مقدمة لدرس لغة العرب: ٢١٠-٢١١.

(٤) ينظر: أشنات مجتمعات في اللغة والأدب: ٤٣-٤٩.

(٥) ينظر: دقائق العربية جامع أسرار اللغة وخصائصها: ١٧.

(٦) ينظر: العبقريّة العربية في لسانها: ٥، ومواضع كثيرة أحر.

(٧) ينظر: فقه اللغة: ٨١-٨٥.

(٨) ينظر: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر: ٧٠٧/٢-٧٢٥.

(٩) ينظر: كتاباه: خصائص الحروف العربية ومعانيها، الحرف العربي والشخصية العربية.

(١٠) ينظر: الدلالة الصوتية في اللغة العربية: ١٤٨-١٥٨.

(١١) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٧-١٤٨.

أفعبتيم أن تمطر السماء دماً، ولعذابُ الآخرة أجزى وهم لا ينصرون، فلا يستخفّنكم المهلُ، فإنّه عزّ وجل لا يحفزه البدارُ ولا يخشى عليه فوت الثار، كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد، ثم أنشأت تقولُ عليها السلام:

ماذا تقولونَ إذ قالَ النبيُّ لكم
ماذا صنعتم وأنتم آخرُ الأمم
بأهل بيتي وأولادي وتكرمتي
منهم أسارى ومنهم ضُرُجوا بدم؟
ما كان ذلك جزائي إذ نصحتُ لكم
أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحم
إنّي لأخشى عليكم أن يحلَّ بكم
مثلُ العذاب الذي أودى على إرم

ثم ولت عنهم^(١).

التحليل الصوتي للخطبة

قولها ٧: (يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل) افتتحت عليها السلام خطبتها بالياء المدية (يا) التي بمد الصوت فيها دلالة على تنبيه المخاطب على أمر يقتضي الإنصات له، ثم نعتهم بـ(الختل) ويعني: الخدع^(٢)، وهي متكوّنة من ثلاثة أصوات: الخاء صوت رخو مهموس، وفيه دلالة على تخفي المخادع واستتاره، وفيه إشارة إلى تخفيهم وعدم مواجهتهم للظلم، والتاء شديد مهموس، فيه دلالة على قوة فعل الخدع وتأثيره، واللام المنحرف أماره على انحرافهم عن الحق، فالتخفي وعدم نصره الحق نتيجه انحراف عن جادة الصواب. ونلاحظ هذا التدرج بالأصوات الذي يدل على حقيقة هذا الفعل، فبدايته تخف ثم إيقاع في المقابل ونتيجته انحراف عن الحق. و(الغدر) متكوّنة من ثلاثة أصوات: الغين رخو مجهور، وفيه دلالة على أنّ الغادر ضعيف ليس لديه الجرأة على المواجهة ولكن غدره يظهره بعد أن يتمكّن من خصمه بالحيلة، والدال شديد مجهور مقلقل وهو ذروة العمل القبيح، والراء المكرر دلالة على تكرار هذا العمل منهم، فقد غدروا بالإمام علي وابنه الحسن عليهما السلام وكرروا فعلهم مع الإمام الحسين عليه السلام. و(الخذل) تتكون من ثلاثة أصوات أيضاً، لكنها كلها رخوة، وفي ذلك دلالة على ضعفهم وقعودهم عن نصره الحق، فضلا عن ما باللام من دلالة على انحرافهم.

ثم قالت ٧: (فلا رِقَاتِ الْعَبْرَةَ وَلَا هَدَاتِ الرَّفْرَةَ)، وكلها كلمات دلّت بترتيب أصواتها على معناها، فمعنى (رِقَات) سكنت^(٣)، فالراء مكرر والقاف مجهور مهموس، وهما ينمازان بالقوة وهي صفة العبرة، والهزمة الشاقّة بالنطق المهتوتة مناسبة للعبرة؛ لأن الهت عصر الصوت، والصببُ أيضاً^(٤)، والعبرة ينهمل فيها الدمع لا سيما في البكاء وهذا يناسب صوت الهزمة، فهما متناسبان معنى وبنية من ناحية الحركات والسكنات.

ثم ختمت (رِقَات) بالتاء المهموس الرخو، فبعد الشدة تسكن وتهدأ. ولفظة (العبرة) أيضاً تسلسل أصواتها يدل على معناها، فالعين مجهور، والباء شديد مجهور مقلقل، والراء مكرر وكلها فيها صفة القوة، والعبرة كذلك. و(هدأت) بهمس الهاء ورخاوة التاء وهمسه تدل على السكون، و(الزفرة) فالزاي المشدد الصفيري المجهور والفاء المهموس الرخو والراء المكرر، أصوات تدل على خروج النفس، وبالفاء دلالة على التأفف، والحسرة لما هم به، وقد تماثلت الحركات والسكنات بالمقطعين ممّا أعطى إيقاعاً منظماً وجرساً للعبارة.

ثم ضمنت كلامها عليها السلام آية من كتاب الله تعالى هي: «نَقَضْتُ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ»^(٥)، ف(نقضت) صوت النون يمثل الحزن عليهم، والقاف المجهور الشديد يشير إلى قوتهم وشدة بأسهم أيام أمير المؤمنين عليه

(١) الاحتجاج: ٣٠/٢-٣١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٢/٢٤٥ (ختل).

(٣) ينظر: الصحاح: ١/٥٣ (رقا).

(٤) ينظر: تاج العروس: ٣/١٥٧ (هنت).

(٥) سورة النحل: ٩٢.

السلام، والضاد المستعلي المجهور يشير إلى ارتفاع شأنهم، لكنّها ختمت بصوت التاء الرخو المهموس، والذي يشير إلى ما أمسوا عليه من الذلّ والهوان.

ونلاحظ لفظ (قوة) كيف انتقلت أصواته لتدلّ على معناه، فالقاف شديد مجهور مستعلٍ، زيادة على أنّه مضموم و((الضمة أقوى الحركات))^(١)، وشدة الواو، والتاء المنونة التي أعطت للفظه جرساً موسيقياً.

ثم قالت عليها السلام: (وهل فيكم إلا الصلفُ والعجبُ والشنّفُ والكذبُ وملقُ الإمامِ وغمزُ الأعداءِ) ف(الصلف): قليل الخير^(٢)، و(الشنّف): المبغض^(٣)، ونلاحظ أنّ هذه الصيغ جاءت متماثلة بالحركات والسكنات، زيادة على ما أداها صوت الفاء من تأقّف وتتكّر لموقفهم الذي خذل الحقّ ونصر الباطل.

ونلاحظ جمالية الأصوات المدية في قولها عليها السلام: (أتبكون أخي؟ أجل والله، فابكوا فإنكم أحرى، بالبكاء، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً) والذي دلّ على طول فعل البكاء ودوامه، فضلاً عن ارتفاع أصواتهم فيه، لما تتماز به أصوات اللين في أنها أكثر الأصوات وضوحاً وأعلها تصويماً^(٤).

ثم قالت عليها السلام: (فقد أبلّيتم بعارها، ومُنّيتم بشنارها)، نلاحظ جمالية توظيف صوت المد بكلمة (بعارها) للدلالة على طول هذا العار الذي لحقهم بقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يذهب هذا العار جيلاً بعد جيل. أمّا روعة التأليف في كلمة (شنارها) فقد بلغ الغاية والكمال في تأدية المعنى، فالشنار ((الأمر المشهور بالقبح والشنعة))^(٥)، فالشين صفتها التقشي والانتشار عند النطق بها، وفيها دلالة على انفضاح عملهم وشهرته بالقبح، والنون بغنته الدالة على الحزن، والمتبوع بصوت مدي وراء مكرر دلالة على الدوام، وأنّ هذا العار لاصق بهم مهما طال الزمان، ثم الهاء المهموس المهتوت، الذي يدلّ على ضعفهم ووهنهم وتبدد قوتهم، زيادة على إتباعه بصوت مد الذي يدل على بقاء ما هم عليه.

ثم قالت عليها السلام: (ولن ترحضوا أبداً، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة)، فمعنى (ترحضوا): تغسلوا، أي: لا تستطيعون غسل هذا العار، وهو قتلكم الإمام الحسين عليه السلام، ووظفت الظرف (أبداً) للبت بهذا الأمر لما فيه من أصوات، فالهمزة صوت شديد مجهور أشق الأصوات بالنطق^(٦)، والباء والدال مجهوران وشديديان أيضاً، والمد بالدال فيدل دلالة على الدوام والتأبيد على عدم غسل هذا العار. ثم استفهمت باسم الاستفهام (أنى) استفهاماً إنكارياً، وفيه دلالة على المراد، فالهمزة صوت شديد مجهور أشق الأصوات نطقاً كما قلت آنفاً، وقد دلّ على فضاة فعلهم وشدته، والنون المشددة المتلوة بمد فيه نبرة حزن وألم على ما جرى بالحسين وأهل بيته عليهم السلام.

ثم تصف أباها عليهما السلام: (والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومدرة حججكم، ومنار محجّتكم) نلاحظ تكرّر صوت الجيم في هذه العبارة أربع مرات، وهو صوت شديد مجهور، يناسب المعنى الجزل التي تريده، من وصف الإمام الحسين عليه السلام بالشجاعة والبأس ورجاحة الرأي، والظريف أن (حججكم) و(محجّتكم) كلاهما من أصل واحد هو (حجج) الذي يدل على القصد^(٧)، وقد لاءم لفظ (المرجع) وهو ما يرجع إليه، فالإمام عليه السلام هو المقصد، ولا بدّ أن يكون المقصد قوياً متمكناً في كل شيء، ومن هنا جاء الجيم ليؤدي المعنى المراد.

ثم تصف حالهم وما أمسوا عليه من الوهن والضعف والذلة بقولها عليها السلام: (ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم، وساء ما تزرّون ليوم بعنكم، فتعساً تعساً! ونكساً نكساً! لقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، ويؤتم بغضب من الله، ضربت

(١) الخصائص: ١٧٤/١.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١٩٧/٩ (صلف).

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٩٣/١٠ (شنف).

(٤) ينظر: الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس: ٢٩.

(٥) لسان العرب: ٤٣٠/٤ (شنر).

(٦) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب: ٣١/٣، مشكلة الهمزة العربية: ٢٤-٢٥.

(٧) ينظر: مقاييس اللغة: ٣٠/٢ (حجج).

عليكم الذلة والمسكنة)، نلاحظ أن الصوت المهيم في هذه الجملة هو السين الذي تكرر إحدى عشرة مرة، وهو صوت مهموس رخو مستقل، قد جمع كل صفات الأصوات الضعيفة، وهذا يلائم حالهم من الوهن والضعف والذلة والمسكنة.

ثم تبدأ عليها السلام باستفهامات إنكارية تبين شناعة فعلهم بقولها: (أتدرون ويلكم أي كبد لمحمد ﷺ فرثتم؟ ! وأي عهد نكتكم؟! وأي كريمة له أبرزتم؟ ! وأي حرمة له هتكتم؟ ! وأي دم له سفكتم؟)، فالصوت المهيم في هذه الجملة هو الميم، فقد تكرر اثنتي عشرة مرة، وهو صوت شفوي مجهور، من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وفيه تنغيم وجرس في نطقه؛ لأنه يشترك الفم والأنف في انتاجه، زيادة على ما فيه من الوضوح والتصويت العالي لذا يعد مع النون من أقرب الصوامت إلى الصوائت^(١)، وتكرره يضي على الجمل إيقاعاً وجرساً موسيقياً، يساعد في تأدية المعنى، وهو توالي الاستفهامات الإنكارية على سوء الفعل وقبحه.

ونلاحظ أن (فرثتم)، بتألف أصواتها دلّت على معناها وهو الفت والانتثار^(٢)، فالفاء والثاء من الأصوات المهموسة الرخوة المستقلة، والثاء المكرر في وسطها دلّ على الانتثار، فحن بنطق الراء كأننا ننطقه مفرداً منتثراً، بخلاف باقي الأصوات، وحنم اللفظ بالميم الذي دلّ بنطقه- وهو انطباق الشفتين انطباقاً تاماً- على الكبد قبل تفتته.

و(هتكتم)^(٣) تبدأ بصوتين مهموسين رخوين مستقلين، ثم صوت شديد، وهذا التوالي بالأصوات دلّ على المعنى المراد، فالهتك: خرق في الشيء^(٤)، أي ضعف من بعد قوة، و(سفكتم) كذلك، فالسين والفاء مهموسة رخوة مستقلة، والكاف شديدة، ومعنى السفك: ((الإراقة والإجراء لكل مائع))^(٥)، وهو أيضاً ضعف من بعد قوة، فتوالي أصوات الكلمتين دلّ على معناهما.

ثم استشهدت عليها السلام بقوله تعالى: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)^(٦) لتبين عظم فعلهم، والصوت المهيم فيها هو الدال، إذ تكرر ست مرات، وهو صوت اجتمعت فيه صفتا الجهر والشدة، ليلائم المقام الذي تتحدث عنه الآية وهو فضاعة قول الكفار أن الله ولدًا، وقد استشهدت بها السيدة زينب عليها السلام لتبين أن مقتل الإمام الحسين عليه السلام وسي أهل بيته ليس بأقل من ذلك.

ثم نلاحظ أن الآية افتتحت بلفظة (لقد) لتدل على معنى ما بعدها إجمالاً، فاللام صوت منحرف، فيه دلالة على قبح فعلهم وانحرافه، والقاف الشديد المجهور المستعلي، فيه دلالة على عظم هذا العمل القبيح، والدال الشديد المجهور المقلقل، أيضاً يدل على عظم جرمهم. و(إدًا): ((هو الأمر العظيم المكروه، وهو خلاف الجريان الصحيح السليم، كما أن نسبة الولد إلى الله العزيز المتعال كذلك، فإنها نسبة منكرة...، وبدلٌ عليه الكسرة والتشديد الدالّان على انكسار وشدة))^(٧)، وقد دلّت بأصواتها على معناها، فالهمزة الشديدة المجهورة والشاقفة بالنطق، والدال الشديد المجهور المشدد المتلو بالمد، أصوات دلّت على عظم وشناعة ما جاؤوا به.

ونرى أن الألفاظ (يَنْفَطِرُنَ) وَ (تَنْشَقُّ) وَ (تَخِرُّ) وَ (هَدًّا) يجمعها معنى واحد وهو التفرق والتشتت، ومن جمالها أن دلّت بأصواتها على معانيها، ف(يَنْفَطِرُنَ) الفاء والثاء من الأصوات المهموسة الرخوة المستقلة، وهي تدلّ على الضعف في الشيء المتفرق، والطاء الشديد المجهور المستعلي المشدد يدلّ على قوة وصعوبة هذا التفرق، فهو ليس بالأمر الهين، والثاء المكرر دل على هذا التفرق أيضاً، كما قلنا أنفاً، فحن ننطقه مفرداً. ونلاحظ أن التكرار الصوتي في كل كلمة منها يدل على قوة هذه الأفعال، المتمثلة بالتفطر والتشقق والخر والهد.

(١) ينظر: الأصوات اللغوية: ٢٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٤٩٨/٤ (فرث).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٦/٣٢ (هتك).

(٤) ينظر: الصحاح: ٤/١٦١٦ (هتك).

(٥) لسان العرب: ٤٣٩/١٠ (سفك).

(٦) سورة مريم: ٨٩، ٩٠.

(٧) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٥٠/١.

و(تشقق) الناء صوت رخو مهموس مستقل، يدلُّ على حالة الضعف بسبب التشقق، والنون فيه جرس للفظ، والشين المهموس الرخو المستقل المتفشي يدلُّ على انتشار وتفرُّق في الشيء المشقوق، وقد ختم بصوت القاف المجهور الشديد المستعلي المشدد الدال على قوَّة هذا التشقق وحالة الشيء قبل تشققه.

و(تخر) فالتاء بصفاته المذكورة أنفا تصور حالة الضعف والوهن للشيء الخار، والخاء أيضا مهموس رخو، ولكنَّه مستعل وباستعلائه يدل على فعل الخرّ الذي يكون عادة من مرتفع، والراء المكرر دلُّ على استمرارية فعل الخرّ وتكرره.

و(هدأ) الهاء مهموس رخو مهتوت مستقل، فيه دلالة على الوهن والضعف، والدال المجهور الشديد المشدد فيه دلالة على قوة فعل الهد، والملحوظ في هذه الألفاظ، بدايتها أصوات ضعيفة وأواخرها أصوات قوية، وهو عين المعنى المراد، فالضعف يدل على حالة الشيء بعد التغير، والقوة قبله، أو تدل القوة على ذات الحدث نفسه، وهو التقطُّر والتشقق والخرُّ والهدُّ.

ثم قالت عليها السلام: (لقد جئتم بها شوهاً صلعاء، عنقاء، سؤداء، فقماء خرقاء كطلاع الأرض، أو ملأ السماء)، افتتحت كلامها بـ(لقد) ودلالاتها كدلالة سابققتها، ونلاحظ أنَّ الصوت المهيمن في هذه العبارة هو الهمزة، فقد تكرر إحدى عشرة مرَّة، وهي صوت شديد مجهور مستقل، جاء ليبدل على فضاة فعلهم وقبحه، فضلا عن ما في الهمزة من الهت الذي يعني ((كسر الشيء حتى يصير زقاتاً))^(١)، فهم بعد أن قتلوا الإمام عليه السلام وأنصاره وأهل بيته، حزوا رؤوسهم، وداسوا جثة عليه السلام بالخيول حتى تكسرت أضلعه، وحرقوا خيامه، ثم سبوا أهله، كل ذلك بهدف إبادتهم، لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ثم قالت عليها السلام: (أفعبجتم أن تمطر السماء دماً) هنا استقهمت عليه السلام عن أمر عظيم حدث في ذلك الوقت، كما روت كتب التاريخ وكما هو واضح من كلامها ألا وهو مطر السماء دماً^(٢)، فاستقهمت عنه بالهمزة الصوت الشديد المجهور، أشق الأصوات نطقاً، وأردفته بصوت الفاء الذي يدل على التأفف والتحسر وينذر بالآفة والعذاب، ويؤيده حديث جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله: ((كل فاء من آفة))^(٣)، لذا استشهدت عليه السلام بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أذى وهم لا ينصرون﴾^(٤).

ثم ختمت η خطبتها بأبيات شعرية:

ماذا تقولون	إذ قال النبي لكم	ماذا صنعتم	وأنتم	آخر الأمم
بأهل بيتي	وأولادي	وتكرمتي	منهم أسارى	ومنهم ضرجوا بدم؟
ما كان ذلك جزائي	إذ نصحت لكم	أن تخلفوني	بسوء في ذوي رحم	
إني لأخشى عليكم	أن يحل بكم	مثل العذاب الذي	أودى على إرم	

ونلاحظ أنها مختومة بصوت الميم-فضلا عن استعمالها البحر السبيط الذي يعد من البحور الطويلة التي تناسب المعاني المهمة بخلاف البحور الراقصة- الذي يدل على الانجماع وهذا واضح عند النطق به بضم الشفتين وانطباقهما، ونلاحظ دلالة الجمع في الكلمات التي تشتمل على القافية وهي: (الأمم) وهو جمع مفردة أمة يدل على الجماعة من الناس، و(الدم) وهو سائل يجمع ويجري في الأوردة، والرحم أيضا يدل على جمع الأقارب ومن تربطهم صلة النسب، وهذا يدل على أنها عليها السلام أرادت التتكيل بهم بأنهم لو اجتمعوا على الحق لما حل بهم ما حل، لذا أندرتهم بالبيت الأخير بالعذاب والهلاك، نتيجة لتفرقهم عن الحق.

(١) تاج العروس: ١٥٦/٣ (هنت).

(٢) روي أنه ((لما قتل الحسين احمرت السماء)) المعجم الكبير للطبراني: ١١٣/٣، وروي أيضا: ((ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي، وحمرتها بكاؤها))، تاريخ مدينة دمشق: ٢١٧/٦٤، الجامع لأحكام القرآن: ٢٢٠/١٠، الدر المنثور: ٢٦٤/٤، ٣١٦/٦.

(٣) دعائم الإسلام: ١٤٦/٢.

(٤) سورة فصلت: ١٦.

النتائج

توصل البحث إلى نتائج منها: وظفت السيدة زينب عليها السلام الأصوات في تأدية المعنى المراد، فقد وظفت الأصوات المهموسة والرخوة للمعنى الضعيف الهزيل، والمجهورة الشديدة للمعنى القوي الجزل، فضلا عن توظيفها صفات التي انفردت بها بعض الأصوات كالانحراف والتفشي والتكرير والهت، وقد كررت في بعض الجمل صوتا مهيمنا لتأدية المعنى قويا أو ضعيفا حسب السياق، وكل ذلك يؤيد إثبات الدلالة الصوتية التي أنكرها كثير من الباحثين، والتي تقضي إلى العلاقة القصدية بين الكلمة ومعناها، فالكلمة تتكون من مجموعة أصوات، وإذا ثبت أن وجود صوت في موقع معين من الكلمة له دلالاته، فلا يمكن أن يكون اختيار الكلمة برمته اعتباطا، كما زعموا.

وأخيرا نرجو أن تختتم هذا الرحلة السريعة بمسك، وهو رضا سادتنا عنا، عليهم صلوات الحق.

المصادر والمراجع

أ. الكتب المطبوعة:

- الاحتجاج: الشيخ أحمد بن علي الطبرسي(ت:٥٤٨هـ)، تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف ١٩٦٦م.
- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي، مصر، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٧م.
- تأريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر(ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم: الشيخ حسن مصطفى، ط ١، ١٤١٧هـ، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): شمس الدين القرطبي(ت: ٦٧١هـ)، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.
- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها: د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني(ت:٣٩٢هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- دراسات في فقه اللغة: د. صبحي إبراهيم الصالح(ت:١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي(ت:٩١١هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت.
- دعائم الاسلام: القاضي النعمان بن محمد المغربي (ت: ٣٦٣هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، مصر، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- دقائق العربية (جامع أسرار اللغة وخصائصها): الأمير أمين آل ناصر الدين، مكتبة لبنان، ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- الدلالة الصوتية في اللغة العربية: د. صالح سليم عبد القادر الفاخري، المكتب العربي الحديث، مصر، د. ت.
- الساق على الساق فيما هو الفاريق: أحمد بن فارس الشدياق (ت: ١٨٨٧م)، باريس، ١٢٧٢هـ - ١٨٥٥م.
- شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الأسترابادي(ت: ٦٨٦هـ)، تحقيق وضبط وشرح: محمد نور الحسن، وصاحبه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- الصحاح: الجوهري(ت:٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
- العبقريّة العربية في لسانها: زكي الأرسوزي، مطبعة الحياة، دمشق، د.ت.
- فقه اللغة وخصائص العربية: محمد المبارك، دار الفكر، ط٢، د. ت.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الانصاري(ت:٧١١هـ)، نشر: أدب الحوزة، قم، ايران، ١٤٠٥هـ.
- مشكلة الهمزة العربية: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني(ت:٣٦٠هـ)، تحقيق وتخرّيج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، د.ت.
- مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مقدمة لدرس لغة العرب: عبد الله العلايلي، المطبعة العصرية، مصر، د.ت.
- نهج البلاغة: الإمام علي عليه السلام (ت: ٤٠هـ)، وهو ما جمعه الشريف الرضي من خطب ورسائل، ضبط نصه: د.صبيح صالح، ط١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، بيروت، د.م.
- ب. الرسائل الجامعية:
- التفكير اللساني عند الإمام علي □: حيدر عبد الرسول عوض، رسالة ماجستير في كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.